المحتوى

أولاً - ردة الفعل

٢٠/١٠/٢٠٠١م

عندما أطلق الروس قمرهم الصناعي الأول، اهتزت الأوساط التربوية في أميركا، وكان السؤال الكبير: كيف استطاع الروس أن يسبقونا في مضمار الفضاء؟ وجاء الجواب، بعد الدراسات المستفيضة: لقد أخفقت المدرسة الأميركية في تعليم تلامذتها القراءة الجيدة، ورفعوا شعاراً يؤكد أن " من حق كل طفل أن تهيأ له جميع الفرص ليكون قارئاً جيداً".

كان ذلك ردَّ فعل عاقل، استفاد من الدرس، ونفذ إلى عمق المشكلة، ووعى أسبابها الكامنة، وخطط لاستيعابها وتجاوزها، فحقق ماكان يصبو إليه من سبق وتقدم..

لماذا لم يفعل الشيء نفسه مع الحدث الكبير

لقد كان صوت الأوساط التربوية خافتاً هذه المرة.. لم نقرأ تحليلاتهم العميقة لما وراء الحدث.. لم نرَ إلا نادراً آلياتهم الفكرية تبحث عن أسبابه الكامنة..

لم نشاهد ضميرهم- الغافي في ظل انتشائه بتفوقهم الاقتصادي والعمراني والعلمي - يستيقظ أويتمطى..

إنما رأينا آلتهم العسكرية وحدها تتحرك، وتستنفر العالم كله للتحالف معها ودعم مهمتها في القتل والتدمير والانتقام.. وسمعنا بياناتهم الحربية؛ تعلن تفوقهم وسيطرتهم (التامة) على أجواء أفغانستان (الخاوية) إلا من بعض الطيور الهاربة من شتائها القارس المنتظر .. وتعلن تدمير الدفاعات الجوية المهترئة لطالبان.. وتزرع الأرض شبراً شبراً بقنابلها العنقودية والانشطارية ..

ولم تفلح صواريخها الذكية بتجنب قصف الأبرياء البسطاء، فدفنت تحت أنقاض البيوت

ترى: هل كانت أميركا تظن أن أحداً يحلو له أن يتوهَّم وجود ترسانة عسكرية في هذا العالم أقوى من ترسانة أميركا؟! أو كتلة مالية واقتصادية أكبر من اقتصاديات أميركا؟! هل كان أحد يشك في قدرة أميركا على أن تغطي سماء أفغانستان بالطائرات، وتزرع أرضها بالقنابل، وتدمر كل مظاهر الحياة فيها، وهي التي تملك من الطاقة النووية ما يكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها أكثر من مرَّة؟!

وكيف استساغت أميركا أن تضع نفسها في إحدى كفتي الميزان مع طالبان، وتتبجح بقدرتها على الانتصار عليها؟! هل ثمة أدنى حد من التكافؤ بين أميركا وطالبان يسمح لهما بالمبارزة؟! هل يقبل بطل العالم في الملاكمة أن يبارز مبتدئاً غراً؟! هل يمكن لفيل أن يزهو بوطئه عامداً أو سادراً نملة بقدمه؟!

وهل كان نظام طالبان يحظى باحترام العالم، ويرقى إلى مرتبة النموذج الذي يحتذى، عندما اختارته أميركا للنـزال؟!.

أم هو استعراض للعضلات، واختيار لأرض محروقة، أو بنية ضعيفة أدنى إلى أن تكون دمية أو قطعة أثرية مجتلبة من المتحف، لردع من تسوِّل له نفسه أن يعترض، ولتحقق مقاصد بعيدة على طريقة عصا موسى؛ يتوكأ عليها ويهشُّ بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى؟!

ألم يكن بإمكان أميركا أن تحقق أغراضها بوسائل أخرى غير وسائل القتل والتدمير؟!

لاشك أن بشاعة الحدث الذي تعرضت له أميركا، وهول الصدمة الكبيرة التي أذهلتها، تسوِّغ لها أن تحرك عضلاتها في كل الاتجاهات؛ دفاعاً عن النفس، وتأكيداً للوجود، وانتقاماً من الجناة، وإعادة للاعتبار، وفرضاً للهيبة.

لن يتردد أحد في شجب العملية المروِّعة التي تعرضت لها نيويورك وواشنطن، وفي الشعور بالأسى للدماء التي أريقت، والنفوس التي أزهقت، وركاب الطائرات الذين سيقوا إلى حتفهم

ولن يماري أحد في حق الولايات المتحدة في تعقب الجناة، والإلحاح في البحث عنهم، وإنزال أشد العقوبات بهم، بعد التثبت من ارتكابهم الجريمة أو ضلوعهم في المساعدة عليها.

لكن هذا التحرك العسكري السريع ، إذا كان مسوغاً على صعيد رد الفعل الغريزي الذي هو قاسم مشترك بين الإنسان وسائر الكائنات الحية، فإنه ليس مبرراً على صعيد العقل الذي تميز به الإنسان عن تلك الكائنات.

فالعقل الإنساني وحده هو القادر على قراءة ما وراء الأحداث من عوامل وأسباب وبواعث، ليعالج المشكلة من جذورها ومكامنها، ويقضي على الفتن والكوارث قبل وقوعها، خاصة إذا كان هذا العقل بحجم العقل الأميركي الذي يمتلك ناصية الفكر بما هو ميسر له من مراكز وأدوات للبحث العلمي، ومن تقنيات متطورة في مجال

إن الإنسان العادي ليعدُّ من الغباء الفادح التوجه بأطنان المبيدات إلى البعوض الحائم فوق المستنقع، بدلاً من العمل بجد لتجفيف المستنقع.. ذلك أن أطنان المبيدات ما إن تقتل البعوض، حتى تفقس بيوضه في المستنقع بعوضاً أكثر يستأنف الحوْم، ولو جففت المستنقع لقضيت على البيوض.

هل يمكن أن يكون المستنقع في الذات، وليس عند الآخر؟! هل يمكن أن أكون أنا.. أنا السبب.. أنا المخطئ ..أنا من وفر المناخ الملائم لنمو الإرهاب واستفحال خطره.. أنا صانع الإرهاب وضحيته في آن معاً؟! لماذا يكرهونني؟

أسئلة يجب أن يطرحها الأميركي المعتدى عليه على نفسه، قبل أن يعلق المشكلة على مشجب الآخرين..

يقولون:

إن الأفعى لا تلدغ إلا من يهاجمها.

وإن الجرذ إذا ألجأته إلى زاوية وضيقت عليه الخناق وثب إلى عينك ليفقأها.

وضربة الأرنب القاصمة (المشهورة)، تؤكد قدرة الجبان على أن يتحول إلى حيوان ضارٍ عندما يحدق به وبأولاده الخطر.

وإن اللعب بالنار كثيراً ما يحرق الأصابع.

ويقول الله تعالى: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم أنى هذا؟!قل هو من عند أنفسكم} [آل عمران ٣/١٦٥].

ثانياً - الإسلام والحدث الكبير

دمشق في ٣/١١/٢٠٠١م

لا شك أن ما حدث في نيويورك وواشنطن يوم الثلاثاء الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، هو حدث إنساني كبير، يهم العالم بأسره، ولسوف يشكل منعطفاً تاريخياً حاداً، يصلح لأن يؤرخ به، ومن غريب المصادفة أن يأتي في السنة الأولى من الألفية الثالثة، ليكون بداية لها، تؤرخ به.

ولا شك أن من حق كل إنسان يعيش على هذه الأرض أن يدلي بدلوه في رسم حدود هذا المنعطف، ومعالم الطريق الذي سيضع الإنسانية عليه!..

فنحن نعيش عصر العولمة الذي اختزل القرى في قرية كونية واحدة، وألغى ما بينها من أبعاد

ونحن نعيش عصر المعلومات وثورة الاتصالات الذي بدَّل معايير ارتقاء الأمم وتقدمها من ثروة المال ومداخن المصانع وقوة السلاح إلى ثروة المعلومات وقوة المعرفة، فكسر بذلك جميع الاحتكارات، وأسقط كل الإيحاءات، إذ المادة الأولية للمعرفة والمعلومات هي الفكر والعقل، وهي مادة مشاعة بين البشر يملكها الجميع بالتساوي، لا ينفرد بها عرق أو لون أو أمة أو شعب ... ولعل ما حدث يوم الثلاثاء، وما حدث قبله من اختراقات إلكترونية على شبكة المعلومات لبرامج البنتاغون يؤكد هذه الحقيقة.. حقيقة شيوع المعرفة وكسر الاحتكارات.

فأين كان موقع الإسلام من الحدث؟ وما كان موقفه منه، بوصفه المرشح الأول للمواجهة مع الغرب في صراع الحضارات، بعد انهيار الاتحاد السوفييتـي، كما صوَّره هنتنغتون،

لم يتردد الأميركيون فور وقوع الحدث في وضعه في قفص الاتهام، كأبرز أصحاب السوابق المشتبه بهم، كعادتهم كلما تلقوا ضربة، حتى لو تبين لهم أن بعض هذه الضربات لم يكن له يد فيها..

بل إنهم - هذه المرة - تجاوزوا توجيه أصابع الاتهام، وعجلت ألسنة قادتهم - ربما لهول الصدمة - بإعلانها حرباً صليبية، اتخذوا لها شعار النسر النبيل، وهو شعار الحملة الصليبية التي سبق للغرب أن شنها على الإسلام - كما نعلم - ثم بدا لهم - تقية - أن يعتذروا عما زلقت به ألسنتهم، تفادياً لإحراج حكومات الدول الإسلامية التي يريدونها لتشاركهم حملتهم ضد الإرهاب..

ثم أطلقوا شعارهم الجائر: من لم يكن معنا في مكافحة الإرهاب على الطريقة التي نرسمها فهو ضدنا يقف في صف الإرهاب، متجاهلين كل حق للإنسان في الاختلاف والتعدد واختيار الرأي الأفضل.

ومعظم حكام العالم الإسلامي، قبلوا الاتهام، ومدوا أيديهم لممثل الادعاء؛ يكبلها بالقيود ثم يقودها إلى قضاة التحقيق ليحلفوا لهم الأيمان المغلظة على براءتهم من الإرهاب، واستعدادهم للتعاون، وتقديم ما يطلب منهم من قرابين، يشرونها بثمن بخس دراهم معدودة، على حساب سيادتهم، وخلافاً لكل مقتضيات القانون الدولي وشرعة الأمم المتحدة.

ويتطوع خطاب الشارع الإسلامي - بكثير من السطحية والجهل والغباء - بتقديم الأدلة والبراهين على رعاية الإسلام للإرهاب.. فيطرح تارة ثنائية الإيمان والكفر، ليستعدي أربعة أخماس سكان المعمورة على المسلمين، وتارة يطلق صيحات الجهاد والبيعة والنصرة بعيدة عن سياقها، مجردة عما قرره لها العلماء من ضوابط وشروط ومسوغات.

ويقف الإسلام إزاء هذه المواقف المتباينة:

مشفقاً أن الإنسانية لم تدرك بعدُ رسالة السماء، ولم تسلك درب الأنبياء الذي لخصته الرسالة الخاتمة، وأودعت خرائطه في كتاب الله تعالى الأخير (القرآن العظيم).

واثقاً من أنها متجهة إليه، تحث الخطا نحوه، تحت سياط تجاربها المريرة، وفي سياق كدحها إلى الحقيقة {هذا نذير من النذر الأولى، أزفت الأزفة، ليس لها من دون الله كاشفة، أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون، فاسجدوا لله واعبدوا} [النجم: ٥٦/٥٣ - ٦٢].

متأكداً من أن الإنسانية سوف تقلع عن استخدام القوة وسفك الدماء وسيلة لحل المشكلات، وسوف تستبدل بها وسائل الحوار، وكلمة السواء التي دعا إليها الإسلام.

ربما يحلو لبعض المتفيهقين من أدعياء الحداثة أن يدرجوا هذا الكلام في عداد الوعظ، ويصنفوه في نطاق لغة الأخلاق والمثاليات، التي يعسر تطبيقها في الواقع المعيش، كما يعسر قياسها بلغة الأرقام، لكنني أومن بأنها حتمية تاريخية تندرج في إطار القوانين الطبيعية التي سيّر الله تعالى بها الكون، وأن الإنسان بموجب قانون الارتقاء والاصطفاء وتجنب الأخطاء الذي سنه الله تعالى له، لا يزال يتدرج في معارجه منذ كان خلقه مشروعاً طرحه الله على الملائكة، إلى

آية ذلك ما نراه من إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام كلما أتيح لهم أن يطلعوا على عظمته، برماً بمادية حضارتهم المغرقة وخوائها الروحي، وإعجاباً بما يحققه الإسلام للإنسان من طمأنينة ترضي تطلعاته إلى الحق، وتوازن لا يهمل بُعده الروحي ومصيره.. حتى إنه بات يشكل - في إحصاءات اليونيسكو - الدين الأكثر انتشاراً وتقدماً في العالم بفارق كبير يفصله عن سائر الملل والديانات.

يحدث ذلك من دون أية جهود تبشيرية تبذل، وعلى الرغم من النماذج التطبيقية السيئة، ومن التخلف الذي يعيشه العالم الإسلامي، مما يؤكد قدراته الذاتية على الانتشار من جهة، وفعالية الكلمة وحتمية ظهور الحق على الباطل تلقائياً من جهة أخرى، وأن الإسلام يعتمد على هذه القوة الذاتية للحق {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً} [الإسراء: ٨١/١٧].

فما هو هذا الإسلام؟ وما خطابه للناس؟ وكيف يتعامل مع الآخر؟ ومن هو الآخر في نظره؟ وما موقفه من الإرهاب والعنف؟!

أما الإسلام فهو الرسالة الخاتمة الجامعة لكل الرسالات، جاءت مكملة لها، ومعترفة بها، مؤكدة وحدتها في المصدر والمنهج {ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} [البقرة: ١٣٦/٢].

وأما خطابه فقد جاء للناس كافة غير محدود بقوم أو لون أو عرق أو دين: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون} [الأعراف: ١٥٨/٧].

وتردد لفظ الناس في القرآن ٢٤١ مرة ليدل على عموم الخطاب.

وأما وسيلته في دعوة الناس إليه فهي البلاغ المبين، والحجة البالغة، والدعوة بالحكمة

ومن الطبيعي بعد كل هذا الإلحاح على تجنب الإكراه في الدين، أن يكون الإنسان حراً في اختيار دينه ورأيه، غير مضطهد، بسبب اختياره {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} [الكهف: ١٨/٢٩].

ومن الطبيعي كذلك - بحسب تعاليم القرآن العظيم - ألا يكون الكفر والإيمان مدعاة للتخاصم والتقاتل بين المسلمين والكافرين، فقد اختصّ الله تعالى نفسه بالحساب عليهما ولم يأذن بذلك لرسوله {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب} [الرعد: ١٣/٤٠].

إنما أذن الله للمؤمنين بالقتال دفعاً للظلم ودفاعاً

وللإسلام موقف واضح من العدوان، فهو ينهى المسلمين عن ممارسته {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين} [البقرة: ١٩٠/٢]، كما ينهاهم عن التعاون عليه: {وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} [المائدة: ٢/٥] وعن مجرد التناجي به فضلاً عن التآمر عليه {فلا تتناجوا بالإثم والعدوان} [المجادلة:٩/٥٨].

ويعيب على بني إسرائيل مسارعتهم إلى الإثم والعدوان خلافاً لما أمروا به {وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون} [المائدة: ٦٢/٥].

وإنما دعا الإسلام إلى الجهاد بشروطه، فالكفر

{إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} [الممتحنة: ٩/٦٠]، فتكون موالاة الظالم والسكوت عن ظلمه ظلماً بحد ذاته. ويقول أيضاً: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً} [النساء: ٧٥/٤].

والقتل من غير مسوِّغ شرعي جريمة كبرى بحق الإنسانية كلها ـ في نظر الإسلام ـ {من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً} [المائدة: ٣٢/٥].

والأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام لا الحرب فالسلام أحد أسماء الله تعالى الحسنى {الملك القدوس السلام} [الحشر: ٢٣/٥٩] {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: ٢٥/١٠] والمؤمنون {تحيتهم يوم يلقونه سلام} [الأحزاب: ٤٤/٣٣] والرسول ❐ مأمور بالصفح والسلام {فاصفح عنهم وقل سلام} [الزخرف: ٨٩/٤٣]، وعباد الرحمن {إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً} [الفرقان: ٦٣/٢٥] والمسلمون مدعوون للدخول في السلم كلما تحققت شروطه {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} [البقرة: ٢٠٨/٢].

فهل بعد ذلك من ريب في نزوع الإسلام إلى السلام، ورفضه لكل أشكال الإرهاب، واستعداده للدخول في أي مسعىً يهدف إلى مكافحة الإرهاب، تضطلع به أيدٍ نظيفة غير ملوثة بممارسة الظلم والقهر والعدوان والتطهير العرقي وطرد الناس من بلادهم وأوطانهم، ولا بمظاهرة الظالمين ودعمهم وتشجيعهم والسكوت على جرائمهم، وتسلك لمكافحة الإرهاب والغي

ثالثاً- عندما تختل الموازين

١/١٢/٢٠٠١م

عندما يُطلب من المضروب أن يكف عن الصراخ، لأن صراخه يزعج الضارب، ويشوب معزوفاته بصوت نشاز..

عندما يؤمر الذبيح بالهدوء، لأن انتفاضته تعيق عمل الجزار، ليزيح السكين عن رقبته..

عندما يراد ممن اقتُحِم عليه بيته، وطُرد من معظم أجزائه، أن يطبِّع علاقاته مع الغاصب؛ وأن يقرأ عليه السلام مصحوباً بالابتسام، تعبيراً عن الشكر لما أبقى، فذلك أدعى إلى أن يتعايش الغاصب والمغتصَب بسلام إلى أن يحين أجل استكمال الطرد، ويذهب كل منهما لشأنه.

عندما تُغتصب الحرة، فتُستنكر مقاومتها

عندما يُصفَّق للرصاصة الذكية التي أفلحت في تصيُّد الصبيٍّ من حضن والده، لم يمنعها انكباب والده عليه، ولا احتماؤه بحاوية النفايات من اصطياده..

عندما تُسأل الموؤودة في مهدها، بأي ذنب قتلت؟ فتحير جواباً، لا تعرف أن قنبلة ذكية اخترقت سقف غرفتها لتخطفها من ثدي أمها..

عندما يغض القانون الدولي طرفه عن الأسير الجريح يُسعف بقتله، وتوضع أصابع تمثال الحرية في أذنيه لئلا يسمع أنات الثكالى، وصيحات شعب يطالب بحريته وحقه في تقرير مصيره..

عندما تصبح مشاهد النعوش لا تمل من حمل الشهداء كل يوم إلى مثواهم الأخير، وغبار الجرافات تقتلع الأشجار والمنازل، وقنابل الحوامات تغتال الأحرار في سياراتهم وفي

وعندما يكافأ منتج أفلام الرعب هذه؛ فتغدَق عليه العطايا والهبات، ويزوَّد بكل أدوات القتل والتدمير، كي يستمر في إنتاج أفلامه المسلية مضرجة بدماء الأبرياء.

عندما يُكره الناس على الإيمان بحضارة السيِّد، وتقديم فروض الطاعة والولاء له، ونظم قصائد المديح تهدى إليه وتنشر بين يديه، لتحظى بفتات المساعدات..

عند ذلك تضطرب القيم، وتختل المعايير، وتطيش الأحلام، ويلتبس الحق بالباطل، ويرتدي الذئب ثوب الحمل، ويتزيى الثعلب بزي الناسك المتعبد، وتختلط المفاهيم، وتنقلب معاني الكلمات إلى أضدادها، وتشتد حاجة الناس إلى قاموس جديد؛ يرى في الظلم قمة العدل، وفي الاستعباد ذروة الحرية، وفي الاستبداد أرقى تطبيق للديمقراطية، وفي التمييز مساواة، وفي التفاوت اشتراكية، وفي الإكراه حواراً، وفي الاستتباع

عند ذلك تتعطل الشرائع والقوانين، ويختلط الحابل بالنابل، ويغيب منطق العقل، ويسود منطق القوة، وتعلو شريعة الغاب، ويكيل الطغاة بمكيالين؛ فيصبحون من {الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون} [المطففين ٨٣/٢-٣]، وينادي فرعون بالناس {أنا ربكم الأعلى} [النازعات٧٩/٢٤] {ما علمت لكم من إله غيري} [القصص ٢٨/٣٨] {ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد} [غافر ٤٠/٢٩]، فتكمم الأفواه، وتخفت الأصوات، ويزدوج الخطاب، فيكون للناس كلام في السر مختلف عن كلامهم في العلن، وينفصم الفعل عن القول، فيتوارى عن الأنظار؛ يأوي إلى الكهوف، أو يلوذ بالسراديب، وينتشر الفساد في الأرض، وتعم الفتن ما ظهر منها وما بطن، يديرها شيطان أعمى؛ قانونه الشر والحقد والظلم والبغضاء

لكن الحليم لا تدوم حيرته طويلاً، فسرعان ما يصغي إلى كلام الله: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين} [يس ٦٠/٣٦]. وسرعان ما يعي أن الفتنة التي زُجَّ في غمارها إنما هي رجس من عمل الشيطان {إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء} [المائدة ٩١/٥]، وسرعان ما يدرك أن العامل الرئيسي في الفتنة إنما هو الظلم ((ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا)) [حديث قدسي رواه مسلم/ رياض الصالحين ١١١]، فيقطع دابر الفتنة ويسقط ذرائع الشيطان، يرفع الظلم ويرد المظالم إلى أهلها، ويحطم أحد المكيالين الذي كان يبخس به الناسَ أشياءهم،

إننا لعلى يقين من أن الصراع لن ينتهي على هذه الأرض، وأن الشر لن يختفي، ما دام الشيطان باقياً، وما دام التاريخ لن يتوقف عن الحركة والتدافع، وما دام شريان الحياة نابضاً في الإنسان {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} [هود ١١/١١٨-١١٩] .

إنما هو **الميزان** يضبط سلوك الناس، ويقيس تصرفاتهم، ويعيد الأمور إلى نصابها كلما اختلت، ويحكم في النـزاعات كلما احتدمت.فقد وضع الله **الميزان** في الأرض منذ أن رفع السماء فوقها {والسماءَ رفعها ووضع **الميزان** أن لا تطغوْا في الميزان} [الرحمن ٥٥/٧-٨].

وأنزل الميزان مع الكتاب الذي بعث به رسله {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد ٥٧/٢٥].

وأمر الناس بإيفاء الكيل {وأوفو الكيل إذا كلتم

وردد مادة الوزن ومشتقاتها في القرآن العظيم ٢٣ مرة ليؤكد للإنسان أهمية **الميزان**.

فهل أدرك الأمريكان سر الفتنة وينابيع الإرهاب، أم أنهم لا يزالون تحت تأثير الصدمة؛ يعيشون وهم القوة والاستكبار، تعوزهم الحكمة والفطنة، لمعالجة المشكلة من جذورها الكامنة، بدلاً من التلهي بإيقاد نيران الفتن والبغضاء، وتأجيج المزيد من الإرهاب، وبث الرعب والدمار والخراب؟!!

رابعاً- أيهما الأجدر بالمكافحة
الظلم أم الإرهاب؟!

3/12/ 2001م

الإرهاب أم الظلم؛ أيهما أجدر بالمكافحة؟!

للظلم وجه واحد كالح لا تنفع معه محاولات التجميل، ولون واحد أسود حالك لا سبيل لتنصيعه، وتعريف واحد متفق عليه في اللغة والاصطلاح، هو حرمان الإنسان من ممارسة حقه أو بعض حقه، بالإكراه أو الاغتصاب أو وضع اليد، فإذا أضيفت إليه تاء التأنيث أصبح معناه ذهاب نور الشيء ليحل مكانه الظلمة والظلام، فيقال ظلام الليل، وظلام الغابة، وظلام السجن، ويبقى المعنى واحداً في الحالين:

فإنما الظلم ظلمات، كما وصفه نبي الإسلام

عليه وسلم، فهو لذلك كله يمتنع
عن القبول أو التسويغ تحت أية ذريعة...

أما الإرهاب فإنه حمّال أوجه ومتعدد المفاهيم، لم يتفق له على معنى محدد، أو تعريف جامع مانع بعد. فلئن كان المعنى اللغوي للإرهاب الإخافة والإفزاع، فإن هذه الإخافة ربما كان لها ما يسوّغها لدفع ظلم أو منع عدوان أو ردع تآمر أو عقاب جريمة ، أو استرداد حق، أو استعادة وطن مستلب... بل إن الإرهاب بهذه المسوغات، يرتقي إلى مرتبة الواجب الذي تفرضه الشرائع والقوانين، ليكون فرض كفاية تقوم به الدول عن طريق جيوشها النظامية أو فرض عين ينهض به الأفراد ويسمى الحرب، بواسطة منظماتهم الشعبية ، عندما تعجز الدولة أو تتقاعس عن أدائه، ويسمى حينئذ المقاومة.

وعلى الرغم من كون التفاوض والحوار والتعاون الأصل في فض المنازعات، وكون العنف استثناءً لا يسوغه غير الإخفاق في حل المشكلات بالطرق السلمية ، فإن الإرهاب الذي

فإن لم تكن للإرهاب، حرباً كان أو مقاومة، قضية عادلة، أو تجاوز حدوده، أو أصاب أناساً لا ذنب لهم، كان إرهاباً مذموماً وجبت مكافحته.

ومكافحة الإرهاب المنفلت المذموم الذي هو أحد أنواع الإرهاب، تندرج على كل حال ضمن مكافحة الظلم، الذي هو بطبيعته مذموم كله، ليس له أي وجه حميد يسوغ ارتكابه، بينما ينقسم الإرهاب إلى حميد يجب تأييده وخبيث يجب استئصاله، وبينهما درجات قد تتشابه في نظر بعض الناس فيلتبس عليهم الأمر، ويقعون في الشبهات، ويوجهون نقمتهم على الإرهاب إلى غير مواضعها.

من هنا نجد أن التحالف بين الأمم المحبة للسلام والراغبة في توفير الأمن للإنسانية، يجب أن يتوجه إلى مكافحة الظلم الذي هو شر كله، بدلاً من أن يتوجه إلى مكافحة الإرهاب الذي قد يكون منه إرهاب عادل مشروع تشجعه الأمم المتحالفة لمكافحة الظلم، وإرهاب ظالم سيكافحه التحالف لأنه جوهر موضوعه.

فإذا توجهت جهود الأمم المحبة للسلام إلى مكافحة الظلم، وتركزت أحلافها عليه، كان ذلك مدعاة لكسب قلوب جميع الشعوب، مهما تعددت معتقداتها ودياناتها، فلا يوجد معتقد ولا دين يؤيد الظلم أو يقف في صفه وإلى جانبه...

والظلم مفهومه واضح، لا لبس فيه ولا غموض، يدركه الإنسان بفطرته، بينما الإرهاب، لا تزال مفاهيمه غامضة، ودوافعه متعددة، يسمح تحالف الناس على مكافحته بسوقهم إلى حرب مدمّرة يخوضونها باسمه، ثم سرعان ما يكتشفون أنهم خدعوا بشعارات براقة تخفي وراءها تحقيق مصالح خاصة تنطلق من رغبة بالاستئثار والتسلط، ويشعرون بمرارة استخدامهم لتحقيق

إن التحالف على مكافحة الإرهاب، بمفاهيمه الغامضة غير المحددة، تحالف تقوده المصالح الخاصة التي تنظم قوائم الإرهاب، وتضع عليها كل ما تغريها به أهواؤها ودوافعها الأنانية، فتسلط الضوء على إرهاب مسوَّغ مشروع، وتعمى عن إرهاب ظالم مدفوع، بحسب توافق المصالح أو تعارضها.

أما التحالف على مكافحة الظلم، بما يتسم به مفهوم الظلم من الدقة والوضوح، فإنه تحالف تقوده القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة، والقيم لا تعبأ بالمصالح الخاصة ، ولا تفرق بين الأعراق والأجناس والديانات، ولا تحابي مقرباً أو محبباً أو معظماً، فالحق عندها أحق أن يتبع.

هكذا نجد محمداً رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام ينادي في الناس ((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف

ويضع [متفق عليه، من حديث عائشة] ((
.الجميع أمام القضاء على حد سواء

ونجد القرآن العظيم يأمر المسلمين أن يعدلوا
ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا }
.المائدة ٥/٨]] {هو أقرب للتقوى

وقبل الإسلام انعقد في دار عبد الله بن جُدعان
بمكة اجتماع حضره فضلاء قريش، تعاهدوا فيه
ألا يدَعوا ببطن مكة مظلوماً من أهلها أو))على
ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه على
.((ظالمه حتى ترد إليه مظلمته

حضرت مع)) بعد بعثته: ❐وقال رسول الله
أعمامي في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب
حُمْرَ النَّعَم، ولو أدعى به في الإسلام أن لي به
.السنن الكبرى ١٢٠/٦]] ((لأجبت

حلف الفضول)،) ودعي هذا الحلف القرشي بـ
انعقد في أواخر القرن السادس للميلاد.

ترى أين يقع تحالف اليوم ضد الأفغان من هذا الحلف المجيد ضد الظلم؟

أكان فضلاء قريش في مكة قبل خمسة عشر قرناً، أكثر وعياً وإدراكاً لعمق المشكلات من زعماء اليوم؟!

فأين الدروس التي تلقتها الإنسانية من تجاربها المريرة عبر القرون؟

هل نكصتها التكنولوجيا المتقدمة على أعقابها فانتكست؛ منبهرة ببريقها وزخرفها، معتزة بقوتها، مزهوة بزينتها، مستغنية بعلومها عن قيم الخير والعدالة التي جاءها بها الأنبياء؟!

هل اشتاقت أوربة إلى الحروب التي هجرتها فيما بينها بعد حربين عالميتين مدمرتين، فعمدت إلى ممارسة هوايتها الشريرة على الشعوب المستضعفة؟

هل عثرت أميركا في المظلومين المقهورين على العدو المفترض تفرغ فيه عدوانها وقدراتها التدميرية، بعد أن أجهزت على عدوها السابق الاتحاد السوفييتي، وارتاحت من حربها الباردة

وإلا فما معنى التحالف لمكافحة الإرهاب، إذا كانت هذه المكافحة تعني قتل آلاف المستضعفين الآمنين، وتشريد الملايين، وإيقاد نار الفتن، وزرع البؤس واليأس والإحباط في النفوس، لإنتاج المزيد من الإرهاب؟

وما معنى التحالف لمكافحة الإرهاب، إذا كانت تهمة الإرهاب تُوجه للطفل الفلسطيني يواجه الدبابة الإسرائيلية بالحجر تعبيراً عن وجوده، ويجود بنفسه فداءً لأمته ووطنه،ويُسكت عنه عندما يمارسه الإسرائيلي:اغتصاباً للأرض وهدماً للمنازل واقتلاعاً للأشجار واغتيالاً للرجال وقتلاً للنساء والأطفال؟!

ما معنى أن يطلب مكافحو الإرهاب من المظلوم أن يلزم الهدوء ويكف عن البكاء، ولا يطلبوا من الظالم أن يتوقف عن ظلمه ولو على سبيل التلطف والرجاء؟!

ما معنى أن يُدان مقتل أطفال إسرائيليين في الزحام، ويُسكتَ عن قتل سبقه لأطفال فلسطينيين

وأن يُدان رد الفعل الفلسطيني الدفاعي مهما كان عنيفاً ويُلتزم الصمتُ إزاء الفعل الإسرائيلي العدواني الذي يسبقه اغتيالاً وتقتيلاً يومياً، بل يشجَّعُ ويُصفق له إخضاعاً لشعب يدافع عن أرضه وعرضه ووجوده وحقه في تقرير مصيره؟!

فهل يتشرعن الإرهاب إذا تمكن؟!

أي هل يصبح الإرهاب شرعياً إذا تمكن بالقتل والإبادة والطرد والتشريد والنهب من تكوين دولة وتشكيل حكومة إرهاب؟!

ومن ذا الذي يمكن أن يضع يده في يده إلا من كان على شاكلته؟!

أو ليس الذي يظاهر الظالم على ظلمه، ويأخذ بيده بدلاً من أن يأخذ على يده، وينصره بدل أن يزجره... ألا يكون ظالماً مثله؟!

هل يكون المظلوم مخطئاً إذا فكر على هذا النحو، ووضَع الظالم ومن ينصره ويشد على يده ويسكت على ظلمه، في سلة واحدة؟!

هل أدركنا الآن أن الأجدر بالعالم المتمدن أن

فلم لا ينخرط العالم المتمدن في حلف الفضول، وينضم إلى الثلة من فضلاء مكة المجتمعين في دار عبد الله بن جُدعان، بعد أن يُعَوْلموا صيغة التحالف لتصبح:

((ألاّ يَدَعوا في العالم كله من سائر الناس والأجناس مظلوماً إلا كانوا معه على ظالمه حتى تردَّ إليه مظلمته))!؟

إن باب عبد الله بن جُدعان ما يزال مفتوحاً ودعوته إلى حلف الفضول ما زالت قائمة... وحاجة العالم إليها اليوم أكثر إلحاحاً لحل مشكلة الإرهاب من جذورها..

خامساً- افهمونا... لسنا أعداءكم

لانجد في ثقافتنا ولا في تعاليمنا ما يسوِّغ لنا بغض إنسان لأجل لونه أو عرقه أو دينه.

إنما نجد في كتابنا وفي سيرة رسولنا دعوة ملحة إلى الحب والود والبر والإحسان والعفو والصفح والسلم والجمال والإخاء والخير والإصلاح والإيثار والحوار والإعمار.

والإنسان في تعاليمنا مقدّس، خلقه الله في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وسواه فعدله، وفضله على سائر مخلوقاته، وكرمه فأسجد له ملائكته، ونعَّمه فسخَّر له الكون كله وأطلق يده فيه ليكشف قوانينه وأسراره ويستثمرها.. خلقه من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وجعلهم شعوباً وقبائل وألواناً وأمماً، وضعهم في حلبة السباق على عتبة

ولا يصح إيمان المسلم مالم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً لا يفرق بين أحد من رسله، ولأهل الكتاب عند المسلم مكانة خاصة، يجمع بينهم قاسم مشترك، وكلمة سواءٌ يدعوهم إليها، هي كلمة التوحيد {ألا نعبُدَ إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله} [آل عمران ٦٤/٢]. وللنصارى عنده مكانة مميزة {لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى؛ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون} [المائدة ٨٢/٥].

وعداوة اليهود للذين آمنوا من سائر البشر، ليست عداوة متبادلة بل هي عداوةٌ من طرف

وإنما صيغت نفس المسلم على الحب: حبٍّ لله، وحبٍّ لعباده، وحبٍّ للبيئة من حوله، فالمؤمنون هم الأشد حباً لله، حباً متبادلاً {يحبهم ويحبونه} [المائدة ٥٤/٥]. وهو قد {كتب على نفسه الرحمة} [الأنعام ١٢/٦]، وهم {رحماء بينهم} [الفتح ٢٩/٤٨]، {ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك} [آل عمران ١٩١/٣]، وذلك في تناغم كامل مع الطبيعة والبيئة والشجرة وما خلق الله في الأرض من دابة، حتى إن القرآن العظيم ليجري – في سياق هذا التناغم- حواراً بين الإنسان وأعضائه، وبينه وبين النمل والطير وسائر الكائنات الحية والجامدة، كلٌّ يقول: {أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} [فصلت ٢١/٤١].

وبمقتضى هذا الحب المتبادل بين الله والإنسان والبيئة، تهفو نفس المؤمن إلى كل ما يحبه الله

وكذلك أقام الله تعالى العلاقة بين المسلم وغير المسلم على الحب، ولو كان هذا الحب من طرف واحد، بمعنى أن المسلم إنما يحب في الآخر إنسانيته، فهو يحب له ما أحبه لنفسه من نعمة الإسلام، ويتمنى له أن يدخل في الإسلام، فإن هو آثر التشبث بدينه ورفض الدخول في الإسلام، فإن ذلك لن يشكل حاجزاً بينهما، يقطع أواصر المحبة والتعاون، ويثير بينهما العداوة والبغضاء بل إن الإسلام رسم لهما السبل الكفيلة باستمرار هذه العلاقة، التي يديرها المسلم بحسب أحوالها المختلفة على النحو التالي:

١ـ حالة التعايش والود المتبادل: تحكمها الآية القرآنية {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم} [الممتحنة ٨/٦٠]، والبر هو أعلى

٢- حالة التنافر والتخاصم التي ربما تشوب العلاقة بينهما، فالمسلم هنا مأمور بأن لا يبادر بالعدوان {ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} [البقرة ١٩٠/٢ والمائدة ٧٨/٥]، كررها بالصيغة نفسها مرَّتين تأكيداً للنهي عن العدوان، وبغض الله تعالى له.

٣- حالة مبادرة الآخر بالعدوان: فما على المسلم إلا أن يرد العدوان بمقداره ولا يتجاوزه {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} [البقرة ١٩٤/٢].

٤- حالة الدعوة إلى السلم وإيقاف العدوان، على المسلم أن يستجيب لها، حتى لو اشتم منها رائحة الخدعة، فإن عليه أن يقبلها مع الحذر {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، إنه هو

٥- حالة التوافق على السلم وإبرام المعاهدات: يكون على المسلم فيها الالتزام والوفاء الكامل بها {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون} [النحل ٩١/١٦].

٦- إنهاء المعاهدات ونقضها: يظل المسلم ملتزماً بمعاهداته مادام الطرف الآخر ملتزماً بها {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم} [التوبة ٧/٩]، ولا يجوز له نقضها حتى لو كان ذلك تلبية لطلب من إخوان له في الدين {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق} [الأنفال ٧٢/٨].. وعليه أن يحافظ على احترامه لمعاهداته حتى انتهاء مدتها {إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين} [التوبة ٤/٩].

تلك هي النصوص القرآنية الناظمة للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، وهي تشكل ثقافة المسلم

هل جاءت مواثيق الأمم المتحدة، وشرعة حقوق الإنسان، ومبادئ العلاقات الدولية بأهدى منها؟! ولدينا في تعاليمنا عن حسن العلاقة والجوار والتعايش مزيد..

فعلى الرغم من انتمائنا لحضارة عريقة هي أقدم من حضارتكم، قصرت همتنا عن متابعة مسيرتها، وتراخت أيدينا عن حمل رايتها، فلسنا نرى مانعاً من بزوغ حضارات أخرى تمضي قدماً في الارتقاء بالإنسان، فقد تكفل الله بإبقاء راية الحضارة مرفوعة، {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} [محمد ٢٨/٤٧] بل نرى حتمية وجود هذه الحضارات البديلة المتعاقبة {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه} [الانشقاق٦/٨٤] فلقد {أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً} [الإنسان ١/٧٦] ولا يزال يتطور ويرتقي في معارج الحضارة، ولن يعود إلى وراء..

ولسنا نرى مع هنتنغتون حتمة الصراع بين

وعلى الرغم من رفضنا لأحادية القطب- لتوجسنا مما يكتنفها من مخاطر الغرور والاستعلاء والاستكبار، ولثقتنا بأن مآلها العقم لافتقارها إلى روح التحدي والاختلاف- فإننا لا نرى مانعاً أن يدفع التفوق والنجاح صاحبه إلى مركز القيادة، ومرتبة النموذج، وسنكون معه ونشد من أزره، ما كان واعياً لما يرتبه هذا المركز عليه من واجب ومسؤولية تجعله جديراً به.

هذا عنا، فماذا عنكم؟

لقد ألمنا لما أصابكم يوم الحادي عشر من إيلول سبتمبر، ورأينا فيه عدواناً فادحاً على الإنسانية جمعاء، فهل شعرتم يوماً بآلامنا اليومية المستمرة من عشرات السنين؟!

هل فكرتم أن تبحثوا عن عدوكم الحقيقي بين ظهرانيكم، فلربما كان هو عدوَّنا المشترك الذي

هل فكرتم أن تبحثوا عنه في سياساتكم، فلربما كانت هي صانعة الإرهاب وموقدة ناره في العالم؟!

إن قيمة التاريخ العظمى تكمن في عظاته وعبره وما يمكن للإنسان أن يستنبطه من تجاربه من سنن وقوانين يهتدي بها ..

فهلا استفدتم من دروسه؟ هلا راجعتم أنفسكم وردعتموها عما ترتكبه في العالم من مظالم وآثام؟!

هلا وقفتم لحظة مع العدل والضمير؟!

{لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِم} [النساء ١٤٨/٤]، فلتسمحوا لنا بالجهر أن الكارثة التي حلت بكم على بشاعتها واستنكارنا لها لم تزحزحكم عما ترتكبونه من مظالم قيد أنملة، ولم تحرك من ضمائركم ساكناً، ومازلتم ترون في باطل إسرائيل حقاً تدافعون عنه، وفي ظلمها عدلاً تدعمونه، وفي بغيها وعدوانها دفاعاً عن النفس تصفقون له، وفي آلام الفلسطينيين وبؤسهم وشقائهم شأناً عادياً لا يؤبه به، وفي

إننا نشك أن تكون الإدارة الأميركية من السذاجة بحيث تجهل أن الشعب الفلسطيني يعيش على أرضه منذ آلاف السنين،

وأن بلفور وعد اليهود بما لا يملك منه شبراً.

وأن الذين نفذوا الوعد اقتلعوا شعباً آمناً من أرضه ليحلوا محله، وأن الذين يحكمون إسرائيل الآن هم قادة العصابات الإرهابية التي ارتكبت مجازر دير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا، وأن الذين شردوا من أرضهم ما زالوا يعيشون في المخيمات لاجئين ونازحين، وأن الذين أحلوا محلهم استقبلوا استقبال الفاتحين وأقطعوا

وأن من مُنح من العرب حق المواطنة في إسرائيل، يعيش المواطنة من الدرجة العاشرة بلا فرص ولا حقوق. وأن انتفاضة الشعب الفلسطيني الأعزل صرخة يُطلقها مدوية عبر مواكب شهدائه المتلاحقة في مواجهة الصمت العالمي المطبق والمتواطئ.

وأن الجسد الغض الذي يضحي به شاب فلسطيني في مقتبل العمر، إنما يجود به تشبثاً بذراع من أرضه يدفن فيه قبل أن يطرده منها الغاصب المحتل.

وأن هذا الجسد هو كل ما يملكه المواطن الفلسطيني المقهور، أفتحرمونه من حقه في تفجير جسده والتضحية بروحه التي هي أعز ما يملك؟ فما الفرق بين صواريخ شارون وقنابله الذكية التي يرميها من طائرات إف ١٦ ومروحيات الأباتشي والدبابات الأميركية الصنع، فوق رؤوس الفلسطينيين، تحصد شيوخهم وأطفالهم ونساءهم كل يوم، وبين جسدٍ ينفجر بين ظهراني اليهود المعتدين رداً على العدوان ودفاعاً عن النفس وتعبيراً عن الوجود؟! وما حجم هذا الرد على العدوان إزاء العدوان؟! وما عسى أن تفعل الآلة البشرية وأذرعة الأطفال، إزاء الآلة العسكرية العملاقة المدمرة؟ وهل الدم الإسرائيلي المعتدي الذي تتحسرون عليه أزكى من الدم الفلسطيني المراق بسخاء دفاعاً عن الأرض والعرض؟!

إذا كانت الإدارة الأميركية لا تعلم هذه الحقائق فتلك مصيبة، أو كانت تعلمها وتتجاهلها فالمصيبة أعظم.

نكرر قولنا للأميركيين : لسنا أعداءكم.. كلمة

٥٧

سادساً: أميركا.. حضارة تتكلس

١٢/١/٢٠٠٢م

أرثي من أعماق نفسي لحال أميركا، وأتمنى من كل قلبي أن تصل أحاسيسي إلى قلب كل أميركي ، وأرجو أن تتمكن كلماتي من التعبير له عن مشاعري..

أدرك تماماً أني لا أملك فصاحة الأدباء، ولا تأويل العلماء، ولا حكمة الفلاسفة، ولست فوكويوما ولا هنتنغتون، إنما أنا إنسان يمتلك كل ما أودعه الخالق في الإنسان من قدرة على التفكير والتقدير والتمييز بين قيم الخير والشر، ونوازع الهبوط والارتقاء، أعشق مبادئ الحرية والعدالة والديمقراطية والمساواة والحوار، وقيم

ومهما قيل عن هذه المبادئ والقيم إنها مثالية تحلق عالياً فوق ممارسات الواقع المعيش، وأن الحياة الفعلية على الأرض تفيض بنوازع الأثرة والأنانية وتغليب المصالح الخاصة القومية والعرقية والدينية، فإني أرى الإنسان مفطوراً على حب الارتقاء والسمو وتحقيق المثل، وأنه في مسيرته التاريخية قد قطع شوطاً بعيداً في تحليقه باتجاه هذه المثل؛ منذ أن كان يقتل أخاه ويأكل لحمه ميتاً ولا يعترف له بحق، ولا يلتزم بغير شريعة الغاب، إلى أن أصبحت له شرائع وقوانين يحتكم إليها ويلتزم بها ويطورها للوفاء بحاجاته ومستجداته.

قد تعلو مُثل الخير مع صيحات الأنبياء والمصلحين، وقد تشيل كفتها إبان تسلط الأشرار

هكذا يستمر الصراع والتدافع، ولا تكون المحصلة ولا يكون ميزان الربح والخسارة إلا لصالح الإنسان وقيمه العليا، وما ختْم النبوة وانقطاع وحي السماء إلا دليل على ثقة الخالق برشد الإنسان، وقدرته على متابعة مسيرته مستخدماً عقله، ومسترشداً برسالات السماء..

إنني أثق بالإنسان، وأومن بالإخاء ووحدة المصير الإنساني، وبهذه الثقة وهذا الإيمان، أسمح لنفسي بوصفي إنساناً عربياً مسلماً أن أخاطب أخي الإنسان الأميركي.. أن أحاول النفاذ إلى ضميره ووجدانه.. أن أستنفر كل نوازع الخير لديه، وكل طاقاته المبدعة وتقديسه للعدالة،

إنني أشفق على الحضارة الأميركية، وقد قطعت شأواً بعيداً في مضمار التقدم الإنساني، أن تتحنط وتتكلس وتتقوقع.. وإن لنا – نحن العرب والمسلمين- تجربة مريرة في هذا المضمار، هي أقدم وأعرق من التجربة الأميركية، كانت ملء السمع والبصر، وأرخت ظلالها الوارفة على معظم العالم القديم، ونقلت كل علوم الأمم السابقة والمعاصرة لها، وصهرتها في بوتقتها وأضافت إليها، وأعادت إنتاجها تراثاً إنسانياً، قدمته للأجيال، فتلقفته الشعوب الغربية يوم أن كانت لا تزال بدائية تعيش خارج إطار الحضارة وأحسنت الاستفادة منه.. وتكلست حضارتنا، وأدركها الجمود والتقوقع، وعجزنا خلال قرنين من المحاولات أن ننفض عنها الغبار، ونعيد إليها طاقتها على الإبداع.

لقد أوفدنا زهرة شبابنا وأكثرهم ذكاءً وفطنة إلى الغرب لينهلوا من علومه، ويستفيدوا من تجربته، فلما عادوا إلينا عجزنا عن توفير المناخ

وأؤكد لكم أننا لن نتقاعس- ضمن محاولاتنا للنهوض - عن الاستعانة بكم والاستفادة من تجربتكم، في إطار (حوار الحضارات)، العنوان الذي نطرحه بديلاً عن عنوان هنتنغتون (صراع الحضارات) .كما أجدني على ثقة – في الإطار نفسه – من أن لدينا ما نقدمه لكم من تجارب التخلف وعبره، لكي تتجنبوها، مثل الذي سبق أن قدمناه للغرب من دروس التحضر وقيمه لكي يأخذ بها..

ولعل أهم تجارب التخلف والانتكاس الحضاري، الذي نحذركم منه، هو الجمود الذي ينجم عن التقوقع والتكلس والتحنط، والانكفاء على الذات، والإعجاب بالرأي، وتنـزيه النفس،

كيف يحدث ذلك كله إبان تأجج الحضارة وفي عنفوانها؟! إنه داء الشعارات الذي عانينا منه الأمرّيْن، ونربأ بكم أن تقعوا فيه، أو أن تركنوا إليه إن أنتم وقعتم فيه..

لقد كافحت شعوبكم ضد القهر والظلم والاستغلال، وما إن تحررت منه حتى نصبت له تمثالاً، أصبح رمزاً للحرية في العالم.. رمزاً يُشع النور والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان، ثم بلغ من إعجابها بهذا الرمز أن اجتهدت حكوماتها بتطبيق قِيَمه عندها وفي داخل بلدانها مهابة له وتقديراً لوجوده بينها، وأوكلت إليه شؤون تطبيقه فيما وراء البحار، من أمم وشعوب، فهي ترتكب فيها باسمه أفظع أنواع الظلم والقهر والاستبداد وقتل الأبرياء وتشريد الآمنين، فإذا سألها سائل مستنكراً، أحالت سؤاله على تمثال الحرية، وهي تعلم أنه حجر لا يضر ولا ينفع، ولا ينطق ولا يسمع، شأن إبراهيم مع قومه، وقد أحالهم إلى

إنني كلما سمعت رئيس دولتكم السيد جورج (دبل يو) بوش، وتابعه كولن باول، يريان على شاشة التلفاز قوافل شهداء الفلسطينيين، وأشلاء أطفالهم الأبرياء، وأنقاض بيوتهم المدمرة، وحطام أشجارهم المقتلعة، ثم لا يكون منهما إلا أن يباركا عنف شارون، ويشيدا بعدالته، ويمداه بالمزيد من أسلحة الدمار، ويطالبا الضحية بالكف عن العنف؛ عنف الصراخ والأنين، عنف دفع الدبابة والطائرة بالحجر، ويسمون ذلك إرهاباً، ويسمون قهر شارون وعدوانه دفاعاً عن النفس .. كلما سمعت هؤلاء يتكلمون بهذا المنطق شعرت كما لو أنهم قد استحوذ عليهم الشيطان فطمس على قلوبهم، وغشى على بصائرهم، وعطَّل عقولهم، واختطف ألسنتهم لينطق بها على هواه باسمهم، فإذا استغلق على أحد من الناس أن يفهم لحن القول هذا، أحالوه على تمثال الحرية ليشرح له بالصمت ما التبس عليه بالنطق.

بالأمس توغلت دبابات شارون في مدينة رفح وهدمت ثلاثة وسبعين منزلاً، وشردت أكثر من مئة عائلة بشيوخها ونسائها وشبابها وأطفالها، ألقت بهم في الشوارع في ليلة شديدة البرد، تحت وطأة عاصفة ثلجية قاسية، لم تمكنهم من لملمة أشيائهم وأغطية نومهم التي يتدثرون بها، وحرمتهم من أبسط حقوق الإنسان في منزل آمن.. فطلع علينا السيد بوش يتحدث بطلاقة وتفاصح عن سفينة الأسلحة التي اعترضها شارون في عرض البحر الأحمر؛ أنه لم تجتمع له الأدلة بعد على تورط ياسر عرفات فيها، إنما هو بدأ يساوره شك في ضلوع السلطة الفلسطينية في الموضوع.. فعل ذلك متجاهلاً مأساة المئات من الفلسطينيين الذين هدَّم شارون بيوتهم وشردهم في العراء.. ولسوف يخترع له شارون في كل يوم دمية جديدة يلهيه بها عن المجازر التي يرتكبها، وسفينةً تحمل بضع بنادق يطلب في مقابلها عشرات الطائرات من طراز إف ١٦وأباتشي ومئات الصواريخ؛ ليتمكن بها من الدفاع عن نفسه ضد حجارة الفلسطينيين العزَّل،

ولئن كان بوش وأعوانه في الإدارة الأميركية من السذاجة أو البلاهة بحيث تنطلي عليهم أكاذيب شارون، أو كانوا واقعين في أسر اللوبي اليهودي وتحت سيطرته، بحيث لا يفكرون إلا بعقله، ولا يرون إلا مايراه.. فإني أجِلُّك أخي الإنسان الأميركي، عن أن تكون كذلك ساذجاً مسحوراً وتابعاً مأسوراً..

إن هؤلاء المأخوذين بسحر شارون أو المنقادين لشعوذته، يضحون بقيمك، ويتاجرون بأموالك، ويتحدثون باسمك، ويرتكبون أفدح المظالم ليجلبوا لك عداوة الشعوب..

لا تصدق أسطورة الإرهاب التي يخدعونك بها ليستدروا عطفك ويبتزوا أموالك، فالإرهاب الذي يلوحون لك به هم صانعوه الحقيقيون.. إن

إن كل الشعوب تنشد السلام والأمن، والإنسان بفطرته يكره الجريمة ويحاربها، ويفرح بالكشف عن المجرم وإنزال أشد العقاب به، لكن محاربة الجريمة لاتكون بجريمة مثلها، وإصلاح الفساد لا يكون بإحلال فساد آخر محله، ومكافحة الإرهاب والظلم لا تكون بالإرهاب والظلم.. إنما تكافَحُ الجريمةُ والإرهابُ والظلمُ بإقامة العدل، وإلا عاش الإنسان شريعة الغاب وعمَّ الفساد.

لقد انتهت عصور الثأر والرهائن، ولم يعد مقبولاً أن يؤخذ بريء بجريرة مذنب، وأن يحاسب إنسان على ذنب لم يرتكبه هو بل ارتكبه غيره {ولا تزر وازرة وزر أخرى} [النجم ٥٣/٣٧-٣٨].

إن تحويل طائراتٍ عن مسارها وتحويل ركابها عنوةً إلى قنابل بشرية، وقتل آلاف الناس الآمنين في برجي التجارة العالمية والبنتاجون في

إن دولة إسرائيل التي يدافع عنها رؤساء حكومتك – أخي الإنسان الأميركي- منذ عشرات السنين، ويمدونها بالسلاح والمال الذي يجمعونه من عرقك وجهدك، قامت على الإرهاب، وجميع رؤسائها كانوا وما يزالون قادة مجموعات إرهابية نفذت عشرات المذابح في فلسطين، وبقرت بطون الحوامل لتتأكد من قتل أجنتها، وشردت ملايين الفلسطينيين من ديارهم وأموالهم، لتُحِلَّ محلهم مستوطنين لا صلة لهم بالأرض.

إن كل قادة إسرائيل مطلوبون للعدالة الدولية

ومالم يرتفع صوتك – أخي الإنسان الأميركي- لرفع الظلم وإقرار الحق وإقامة العدل وإنكار المنكر، فلا تنتظر من الشعوب المقهورة المظلومة أن تألم لألمك، أو تغضب لغضبك.. بل لا تستبعد أن تفرح هذه الشعوب بالمصيبة التي تحل بكم – مع إنكارها للجريمة وإدانتها لها – تفرح بها بوصفها عقوبة إلهية مثل أي كارثة أنزلها الله بالظالمين، استجابة منه لدعوات ملايين المظلومين المقهورين: {فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنْظَرين} [الدخان ٢٩/٤٤].

ولا يغرنك – أخي الإنسان الأميركي – أن رؤساء حكومتك قد أعلنوا عن إيمانهم بالله، فكتبوا (In God we Trust) على ظهر كل دولار، فإنما فعلوا ذلك في إطار عملية التحنيط التي مارسوها على مبادئك وأفكارك مثل (تمثال الحرية)، استطاعوا بها أن يجمدوا إيمانك بالله ويخرجوا قيمه وأوامره من التداول، ويحولوه إلى رقية أو تميمة تقيك غدرات الزمان وشر

لقد خدعتنا الشعارات البراقة فحجبتنا عما وراءها من حقائق ومضامين، وجمدت أفكارنا، وحجرت على عقولنا، وردَّتنا إلى التيه نتلمس طرق الخروج، وهذه عبرة تجربتنا نقدمها لكم آملين أن تتمكنوا من التحرر سريعاً من أسر الشعارات، وتزييف الإعلام، والاختباء وراء التماثيل، وأن تكسبوا قلوب الشعوب المحبة للسلام بالتعاطف معها، والاستنكار لمظالمها، والكف عن مساعدة ظالميها وجلاديها، والأخذ على أيديهم، فإن القلوب قد جبلت على حب من يحسن إليها، ولسوف تبادلكم بالإحسان إحساناً، تفرح بما تفرحون به وتألم لما تألمون...